

رقم الدرس ٤

السبت ٢٢-١١-١٤٤٧ هـ

شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام/ محمد بن عبد الوهاب التميمي - رحمه الله -

الملقاة بمسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -

لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن محمد المختار بن محمد بن مزيد الجكني الشنقيطي

المدرس بالحرمين الشريفين

وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية

ومفوض الإفتاء بمنطقة المدينة المنورة

حفظه الله تعالى ونفع بعلمه وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين

ملاحظة: هذه الدروس لم تُراجع من فضيلة الشيخ - حفظه الله -.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قال الإمام المصنّف -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: [فيه مسائل: الأولى: الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ].

الشرح:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحمدُ لله ربّ العالمين، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ الاثمان الأكمالان على أشرف الأنبياء والمرسلين وخيرة الله من الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله ونهجه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين، أمّا بعدُ:

فقد أتمَّ الإمامُ المجدِّدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- سردَ الآيات والأحاديث التي دلت على أهمية التوحيد، كما أنها أشارت إلى معانٍ جلييلةٍ ينبغي للموفق أن يمعنَ النَّظَرَ فيها، وقد بيَّناها في موضعها. وهنا شرعَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في بيان المسائل، ومنهجُه -رَحِمَهُ اللَّهُ-: أنه يذكرُ الآيات والأحاديث التي تتعلَّقُ بالباب، ثم يتبعُها بالمسائل.

و(المسائل): جمعُ مسألةٍ، يُرادُ بها ذكرُ حكمٍ من الأحكام التي اشتملت عليها الآيةُ الكريمةُ. وهذه المسائلُ في الحقيقة مهمةٌ جدًّا؛ لأنَّ المقصودَ من إيراد الآيات الكريمة والأحاديث عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إنما هو الفهمُ لما تضمَّنَتْه من المعاني الجلييلة خاصةً في أمر التوحيد والتحذير من الشرك.

فهذه الآيات والأحاديثُ يستنبطُ الإمامُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- منها مسائل. وكلُّ من يتأمَّل طريقتَه في إيراد المسائل، وأيضًا في ترتيب بعضها على بعض، وكذلك في شموليَّة هذه المسائل لما ترجم له في الأبواب، يجد أنَّ الإمامَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- قد وُفِّقَ توفيقًا عظيمًا، فالتوحيد أمره عظيمٌ، والحكم بالشرك أيضًا أمرٌ عظيمٌ، ولا يتناولُ هذا الأمرُ بدقَّةٍ وعنايةٍ إلا من كانت له بصيرةٌ لما دلت عليه نصوصُ الكتاب والسنة، وسار عليه السلفُ الصالحُ لهذه الأمة ومن تبعهم بإحسانٍ.

فهذه المسائلُ مهمةٌ ينبغي لطالب العلم أن يُوليَّها حقَّها من العناية والفهم. ومما لاحظتُه ولاحظَه من كان معنا يدرسُ منهجَ الإمام المجدِّد -رَحِمَهُ اللَّهُ- خاصةً في تفسير الآيات: أنك تجده يستنبطُ المعنى من الآية، قلَّ أن تجده يضعُ حشوًّا في كلامه، فكلامه بقدر دلالة الآية الكريمة، وهذا أمرٌ لا يحسنُه إلا من وفَّقه الله؛ لأنه يحتاج إلى ورعٍ، ويحتاج إلى علمٍ، ويحتاج إلى دقَّةٍ في التعبير،

فخذ مسائل (كتاب التوحيد)، وخذ الأدلة التي استنبطت منها المسائل، واعكف على النظر فيها، فتجدها لا تزيد ولا تنقص، وهذا من أدق ما يكون، ومن أعظم ما يكون من توفيق الله للعبد، أنك تأخذ نص الكتاب ونص السنة لا تزيد عليه، ولا يذهب الإنسان يميناً وشمالاً، العلم ليس بكثرة الهدى، لكن العلم نور وبصيرة، وهذا يتجلى في كثير من مسائله -رحمه الله-.

ولذلك من أمعن النظر في هذه المسائل التي يذكرها -رحمة الله عليه-، وأيضاً كيف يرتبها على حسب ترتيب الآيات؟ وكيف يضيف إلى دلالة الآية ما يعضدها من نص آخر إن وجدت الحاجة؟ أمور الحقيقة كلما تأملها المتأمل أدرك فضل الله على هذا الإمام.

فقيض الله لهذه الأمة هذا الإمام الذي حمل هم هذا القسم العظيم من أقسام التوحيد، خاصة في توحيد الألوهية، فكل من يقرأ (كتاب التوحيد)؛ لأن توحيد الألوهية وتوحيد المسألة والعبادة اعتنى به أيما عناية في هذا الكتاب:

أولاً: لأنه هو الذي وقعت فيه الخصومة بين الرسل وقومهم.

وثانياً: كما ذكر الشيخ الإمام، ونقصد ب(الشيخ الإمام) إذا ذكرناه في شرحنا: الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، إمام الأئمة وشيخ المشايخ -رحمة الله برحمته الواسعة- في شرحه ل(كتاب التوحيد)، أشار إلى أن الإمام المجدد اعتنى بهذا النوع من التوحيد؛ لأمرين هامين:

الأول: أنه هو الذي وقعت فيه الخصومة؛ فهو دعوة الرسل، ولذلك قال الله في كتابه -كما تقدم معنا-: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، فاعتنى بهذا النوع لهذا الأمر.

ولأمر ثانٍ: -وهو من الأهمية بمكان- عموم البلوى به، فالأمة بُليت بإضاعة هذا النوع من التوحيد في صور عديدة، ولذلك اعتنى -رحمة الله- خاصة في زمانه حينما كانت يطاف بالمشاهد، وتُعبَّد، ولا يزال إلى الآن، لكن وبحمد الله وبفضل الله، ثم بنعمة الله بهذه الدعوة المباركة، قل كثير من هذا البلاء، وإن كان لا يزال يوجد بعض الشيء، ونسأل الله أن يهدي العباد إلى هذا الحق، وأن يتقبلوه، وأن يشرح صدورهم.

فالمقصود: أن هذا النوع -وهو توحيد المسألة- اعتنى بذكر مسائله، سواء كانت هذه المسائل موجودة في دلالة الكتاب، أو في دلالة السنة.

وهنا شرع المصنّف -رحمته الله- في بيان هذه المسائل، فأول مسألة ذكرها في (كتاب التوحيد) تدلّ على أهمية التوحيد، فقال -رحمته الله-: **[الحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ]**: وهذا في قوله تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}**، فالحكمة من خلقهم وأيضاً المقصود الأعظم من خلقهم: أن يعبدوا الله، لا يشركوا به شيئاً، ما خلقهم إلا لعبادته، ومن هنا، أصبح التوحيد أعظم مقصود، وهو الحكمة من خلق الخلق وإيجادهم، ولا شك أن توحيد العبادة والمسألة هو من أعظم أنواع التوحيد، وكل أنواع التوحيد عظيمة كما ذكرنا.

فقال -رحمته الله-: **[الحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ]** لم يبيّن، لكن قال: إنها مسألة اشتملت عليها الآية الكريمة، وقد بيّنّا كيف اشتملت عليها؟ وكيف دلّت عليها؟

[الثَّانِيَّةُ: أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ].

[أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ]: قدّمنا أن العبادة: (اسم جامع لكل ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)، فقال -رحمته الله-: **[أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ]**، ولذلك ذكر الله صورا من توحيد المسألة، ووصفها بكونها عبادة، وكما قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}**، **{وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي}**: فذكر الدعاء، وهو نوع من أنواع توحيد المسألة، ثم أتبعه بقوله: **{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي}**، فجعل الدعاء نوعاً من العبادة، ولذلك من دعا غير الله -وَالْعِيَادُ بِاللّهِ-، وسأل ما لا يسأل إلا من الله، سأل من غير الله، أو سأل مع الله من أحد آخر، فقد أشرك مع الله، وجعل لله نداً -تعالى الله-.

ومن هنا، قال -رحمته الله-: **[أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ؛ لِأَنَّ الْخُصُومَةَ فِيهِ]**، **[أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ]**؛ لأنّ قوله: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}**، كأنه قال: (ما خلقت الجنّ والإنس إلا ليوحدون)، ومن هنا، قلنا: إنه قول من الأقوال في تفسير الآية الكريمة: **{إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** أي إلا ليوحدون، فالعبادة: هي التوحيد، والتوحيد: هو العبادة، ومن هنا، يقال له (توحيد العبادة)، و(توحيد المسألة). **[لِأَنَّ الْخُصُومَةَ فِيهِ]**: (أل) في (الخصومة) للعهد الذهني؛ لأنّ (أل) تأتي للعهد الذكري، والعهد الذهني، **{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ}**، أي الذي أرسلناه وذكرنا أننا أرسلناه، وتأتي للعهد الذهني، فقوله: **[لِأَنَّ الْخُصُومَةَ فِيهِ]** لأنّ الخصومة

بين الرسل وبين كلِّ رسولٍ وقومه وقعت فيه، أي في توحيد العبادة، ولذلك لما بعث الله نبيّه إلى قومه قال الله له: {وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}، إذا هم لا يخاصمون ولا يجادلون في توحيد الربوبية، ولكنهم: {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}، خاصموا في توحيد الألوهية وتوحيد المسألة، {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}، فهؤلاء يخاصمون ويجادلون في توحيد المسألة والألوهية.

وهذا هو الذي وُفِّقَ له الإمام، ولذلك نصّفه بكونه مجدّداً؛ لأنه إلى عصره -رَحِمَهُ اللهُ- كان فيه خلطٌ بين إقرار الناس بتوحيد الربوبية وإضاعتهم لتوحيد الألوهية.

فإذا صُرفَ حقُّ الله في توحيد الألوهية، وجاء المصلح والدّاعي والهادي إلى الله بإذن الله يقول لهم: (هذا شركٌ، وصرفُ حقِّ الله إلى عباد الله)، قالوا: (لا، هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله، ويقرّون بأنَّ الله ربُّهم، وأنَّ الله خالقهم)، فيخلطون ما بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ولذلك قيّض الله لهذه الأمة، كانت هذه الأقسام أقسام التوحيد كانت معلومةً عند السلف الصّالح وعند من سبق من صالح الأمة ومضوا على ذلك، والعلماء يعرفونها، وقرّرها شيخ الإسلام، ووُجدت في تقريرات شيخ الإسلام وكتب شيخ الإسلام والإمام ابن القيم وغيرهم من المحقّقين وُجدت منتشرة، لكن لما تأخّرت القرون، وصار اللغظ، ولُبِّسَ على العامة، وقيل: (إنَّ هذا الحقَّ يجوزُ صرفه لغير الله)، تحت ذريعة تعظيم الأولياء، وأنهم لهم مكانٌ عند الله، وأننا نتوسل بهم، ولا نعبدهم، وأننا، وأننا، برز هذا الإمام المجدّد، فبيّن للأمة ما ينبغي بيانه، وفصل ما ينبغي تفصيله، وهو الفصل بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، ولذلك تجد البعض الآن حينما تأتي وتجد الرجل يقول أمراً يصف فيه حقاً لله للمخلوق، أو يعتقد في المخلوق أمراً لا يجوز اعتقاده إلا في الله، تقول له: (يا أخي، هذا هو الشّرك)، يقول لك: (هذا يشهد أن لا إله إلا الله، كيف تقول: إنه مشرك؟!)، فإذا فيه خلط ما بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

فبين -رَحِمَهُ اللهُ- أنَّ الخصومة فيه، في توحيد المسألة وتوحيد العبادة، هذا هو الذي وقعت فيه الخصومة، ومن هنا، العناية وتوضيحه للناس يكشف كثيراً من اللبس وتلبيس شياطين الإنس والجن لهذا الأمر العظيم الذي ضاع فيه حقُّ الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

[الثالثة: أَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ، فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}.]

[أَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ]: وهو توحيد العبادة، **[لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ]:** وقلنا: إنه لا يمكن أن يوصف الإنسان بكونه موحِّداً لله، قال: إِنَّ التَّوْحِيدَ هو العبادة، وإذا كان هو العبادة، فمعنى قوله تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}**، أي إلا ليوحِّدونه، فمعناه: أن من لم يوحِّد الله -عزَّ وجلَّ- لم يكن عابداً لله، ولو ادَّعى أنه يشهد أن لا إله إلا الله.

فإذا لابد من أن يأتي لهذا الحق العظيم مشتملاً على الركنين اللذين يقوم عليهما التوحيد: إثبات حق الله، وعدم صرفه لغير الله كائناً من كان ذلك الذي يُصرف إليه.

ومن هنا، قال الله: **{قُلْ: يَا مُحَمَّدُ، {يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}**، فهم يعبدون غير الله، فوصفهم بكونهم عابدين لغير الله، أنهم غير عابدين لما عبده رسول الله، وهو الله -صلوات الله وسلامه عليه-.

إذاً من صرف حق الله لغير الله فهو غير عابد لله، بعبارة أخرى: غير موحد لله، فلا يأتي أحد يقول: (هذا يشهد أن لا إله إلا الله).

فقرَّر -رحمته الله- أمراً مهماً يحصل فيه الخلط عند كثير من الناس، وهذا فيه معذرة إلى الله -عزَّ وجلَّ- ببيان أن حقَّ الله -عزَّ وجلَّ- ينبغي أن يكون لله خالصاً مخلصاً: **{قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ}**، وصفهم بكونهم يعبدون، لكن الذي أعبدته لا يمكن أن يوصف أحد بكونه عابداً له إلا إذا كفر بغيره، وامتنع من صرف هذا الحق لغير الله -جلَّ جلاله-، فقال: **{وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}**.

فمن دقَّته -رحمته الله-: استنبط أن الله نفى عنهم أنهم قاموا بالعبادة التي من أجلها خلِّقوا؛ لأنهم صرفوا حقه لغيره -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وهذا هو محلُّ توحيد المسألة وتوحيد العبادة الذي وقعت فيه الخصومة بين الرُّسل وقومهم.

[الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل -عليهم الصلاة والسلام-].

[الحكمة في إرسال الرسل -عليهم الصلاة والسلام-]: انتهى من بيان الحكمة في خلق الخلق، ولذلك يُعظم أمر التوحيد، ويقال: إنَّ أمر التوحيد هو الأمر، وهو أعظم الأمور، ويكفي في شرفه وعظم أمره وعظم شأنه أن الله خلق الخلق من أجله، وأنَّ الله أنزل الكتب من أجله، وأنَّ الله بعث الرسل من أجله.

فإذا الحكمة في بعث الرسل ما هي؟ كما قال الله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ}، وليس وحده: {وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، جاء بالركنين: {اعْبُدُوا اللَّهَ} أن يعبد الله، ويقوم بحق الله -عزَّ وجلَّ-، فيؤدِّي حقَّ الله لله، لكن لا يصرفه لغير الله -عزَّ وجلَّ-: {وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}.

[الخامسة: أن الرسالة عمَّت كل أمة].

[أن الرسالة عمَّت كل أمة]: سبق وأن قلنا: إنَّ الرسول هو السَّفير، وأنَّ الرسالة هي السَّفارة، والسَّفارة تقوم على أصليين: البشارة والنِّذارة، البشارة لمن وَّحد، والنِّذارة لمن أشرك، ولذلك قال: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ}، فهذه هي أصل رسالة الرسل، البشارة لأهل التوحيد، والنِّذارة لأهل الشرك، هذه أصل رسالة الرسل، لكنَّها في كل أمة.

الأمة تُطلق في لغة العرب بمعنى الجماعة، ويقال للجماعة من الناس (أمة): {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} يعني جماعة.

وتُطلق الأمة بمعنى الرجل المَعْلَم، بمعنى المَعْلَم للخير، ويحكى عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه فسَّر قول الله -عزَّ وجلَّ-: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ} أي معلِّماً للخير.

وقيل -وهو المعنى الثالث للأمة- تُطلق على الرجل الذي جمع الصفات العديدة التي توجد في أكثر من شخص، فيقال: (فلان أمة): أي جمع صفات غيره من النبل والفضل.

وحمل عليه أيضاً: قوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ}.

وتُطلق الأمة بمعنى القدر من الزمان، كما في قوله تعالى: {وَادَّكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} أي بعد زمن.

وَتُطَلَّقُ الْأُمَّةُ عَلَى الْجِيلِ، وَحَمَلُوا عَلَيْهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ}، أَيِ فِي كُلِّ جِيلٍ، كَمَا صَارَتْ فِتْرَةٌ مِنَ الرِّسَالِ بَعَثَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- مِنْ يَجِدُّدُ مَعَالِمِ التَّوْحِيدِ، وَيُحْيِيهِ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ. فَالْأُمَّةُ تُطَلَّقُ بِهَذِهِ الْمَعَانِي.

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ}، بَيَّنَّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- أُنْهَاءَ، أَيِ رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ: [أَنَّ الرِّسَالَةَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ]، [عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ]: لِأَنَّ اللَّهَ أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى عِبَادِهِ، كَمَا قَالَ: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}، فَهَؤُلَاءِ الرِّسُلُ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ، وَهُمْ شُهَدَاءُ عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا يَبْلِغُونَهُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَهُوَ أَصْلُ الدِّينِ، إِذَا كَانَ التَّوْحِيدُ هُوَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خُلِقَ الْخَلْقُ، وَمِنْ أَجْلِهِ أُرْسِلَ الرُّسُلُ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ رِسَالَاتُ الرِّسُلِ، فَأَيُّ شَأْنٍ لِهَذَا الْأَمْرِ؟ وَأَيُّ قَدْرِ؟ فَقَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [أَنَّ الرِّسَالَةَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ]: التَّوْحِيدُ فِطْرَةٌ، وَلِذَلِكَ قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) عَلَى الدِّينِ، وَعَلَى التَّوْحِيدِ، وَلَكِنْ النَّاسُ تُجْتَالِ وَتُصَرَّفُ عَنْ هَذِهِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ الْمَرْضِيَّةِ بِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}، وَأَعْظَمُ الْإِضْلَالِ وَأَعْظَمُ الشَّقَاءِ وَالْعَنَاءِ: إِذَا صُرِفُوا عَنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَأَعْظَمُ نِعْمَةٍ لِلْمَوْفَّقِ: أَنْ يَدْلَهُمْ عَلَى هَذَا التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَرُدَّهُمْ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَحْتَسِبَ فِي دِلَالَتِهِمْ عَلَيْهِ، وَأَنْ تُخَلَّصَ هَذِهِ الْقُلُوبُ مِنَ الشَّوَائِبِ وَمِنَ الْأَدْرَانِ وَمِنَ الْعِبُودِيَّةِ لغيرِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَالتَّوْحِيدُ رِسَالَتُهُ عَمَّتْ؛ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ بِهِ رِسْلَهُ.

[السَّادِسَةُ: أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ].

[أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ]: وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} الدِّينُ: هُوَ التَّوْحِيدُ، الْأَصْلُ فِي جَمِيعٍ مِنْ بُعِثَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كُلُّهُمْ أُرْسِلُوا مِنْ أَجْلِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، بُعِثُوا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَأْمُرُوا بِالتَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَنْهَوْا عَنِ الشِّرْكِ، كُلُّ الرِّسَالِ بُعِثُوا مِنْ أَجْلِ هَذَا.

وَأَمَّا بِالنَّسْبَةِ لِلشَّرَائِعِ وَالْمَسَائِلِ وَالْأَحْكَامِ مِنْ غَيْرِ الْعَقِيدَةِ: فَهَذِهِ تَخْتَلِفُ مِنْ شَرِيعَةٍ إِلَى شَرِيعَةٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْأَنْبِيَاءِ: ((إِنَّهُمْ أَبْنَاءُ عِلَّاتٍ))، وَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ أَخٍ يَجْمَعُهُمُ الْأَبُ الْوَاحِدُ، وَأَمَهُائِهِمْ مُتَفَرِّقَةٌ، لَكِنَّ أَبَاهُمْ وَاحِدٌ، فَهُمْ أَبْنَاءُ عِلَّاتٍ، فَأَبُوهُمْ وَاحِدٌ، هَذَا الْأَصْلُ، فَهُمْ إِخْوَةٌ لِأَبٍ، فَالْإِخْوَةُ لِأَبٍ أَصْلُهُمْ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْأَبُ، وَلَكِنَّهُمْ مُتَفَرِّقُونَ فِي الْأُمِّ.

كذلك الشرائع السماوية مجتمعة في التوحيد، مختلفة في الأحكام: {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}، كان من قتل عدواناً وظلماً يُقتل، ونزلت التوراة: {وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ}، إذا قتل يُقتل حتى لو سامح وتجاوز أهل الميت يُقتل، هذه شريعة التوراة، ثم شريعة الإنجيل أُذن فيها بالعفو عن القاتل، يُقتل إذا طلب أولياء الدم بالقود والقصاص، وإذا عفوا يُعفى.

وأما بالنسبة لشريعتنا: فإنه جعل فيها العفو بعوض كما في شريعة عيسى -عليه السلام- في الإنجيل، والعفو بدون عوض؛ توسعة من الله على هذه الأمة ورحمة: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}.

فهم من حيث الأصل، ولذلك ما يُقال: (أديان سماوية)؛ لأن الدين واحد، ولكن يُقال: (شرائع) وأنها اختلفت في الأحكام والمسائل نعم، لكن الدين واحد، ولا دين إلا بتوحيد؛ لأن الديانة التي أذن الله بها والديانة التي خلق الله الخلق من أجلها والديانة التي أنزل من أجلها كتبه، وأرسل رسله هي التوحيد، ما فيه ديانة غير التوحيد: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ}، وهذه حقيقة يعلمها الموفق، ولا تقبل الجدال؛ لأن الله حسمها: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}، {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ}، الإسلام: هو الاستسلام لله بالطاعة، والانقياد له بالطاعة، والخلوص له من الشرك، الإسلام: هو الاستسلام والعبودية الخالصة لله -عز وجل-، فإذا نُظر إلى هذا كان الدين واحداً، وهو التوحيد، وهو الأصل، فقال -رحمه الله-: [السادسة: أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ]، [أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ]: كلهم بُعثوا من أجل (لا إله إلا الله)، كلهم بُعثوا من أجل التوحيد، فهذا أمر لا يختلف فيه اثنان.

[السابعة: الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ، ففیه معنى قوله تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}].

{فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ}: قدّم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله، قدّم البراءة من الشرك على التوحيد الذي هو الأصل، إثبات حق الله، مع أن الأصل أن يقول: (لا إله إلا الله)، يبدأ بإثبات حق الله، ثم ينفية عن غيره، لكن لأهمية هذا الأمر: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ}، الطاغوت: اختلف في

تعريفه، وهو من "طغى الشيء": إذا ارتفع وزاد عن حدّه، (وكل ما زيد عن حدّه في تابع أو متبوع أو معبود أو وثن فإنه طاغوت)، وهذا من أجمع التعاريف، وهو تعريف الإمام ابن القيم -رحمه الله-.
وقيل: (إنّ الطاغوت هو كل ما عُبد من دون الله)، لكن يدخل فيه: من رضي ومن لم يرض، ويصبح هنا النقاش: أنه لا يشمل من لم يرض، فلا يوصف بكونه طاغوتاً، فعيسى بن مريم عبده من عبده، لكنه ليس بطاغوت بهذا المعنى.

الطاغوت: (هو كل ما زيد فيه عن حدّه)، وهذا يكون بصرف حق الله إليه، وحينئذ يكون طاغوتاً سواء كان تابِعاً، أو متبوعاً، أو كان وثناً، أو صنماً، أو معبوداً، كل هؤلاء يُوصفون بكونهم طاغوتاً من حيث الأصل، لكن المراد به يُفرّق في الحكم بين من يرضى ومن لم يرض.

ولما قال الله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}، جاء ابن الزبير وغيره من كفّار قريش وقالوا: أنك تزعم أننا وأهلنا في جهنم، إذا النصراني لما عبدت عيسى بن مريم، هي وعيسى أيضاً في جهنم! فردّ الله عليهم، ونزلت آية الزخرف: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}، فبين الله -عزّ وجلّ- أنهم أهل جدل، وأهل لغط، حتى قال بعض العلماء: هذا من جهلهم؛ لأنّ الله قال: {إِنَّكُمْ وَمَا}، وهذا مستغرق في الجماد، لا في الحي، هذا من الأجوبة.
لكن على العموم، المراد من رضي بعبادته، من رضي أن يُعبد، وأن يُصرف إليه حق الله -عزّ وجلّ- فهو حينئذ يعتبر طاغوتاً.

بين -رحمه الله- المسألة الكبيرة، نعم؛ لأنها هي التي وقعت فيها الخصومة كما ذكرنا، وهي عدم صرف حق الله لغير الله كائناً من كان، سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلأً أو ولياً أو قبراً أو أي شيء كان، لا يجوز صرف حق الله إليه، وهذه هي المسألة العظيمة الكبيرة.

[أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ]: هذا هو، أن نقول له: لا يكفي أن يشهد شهادة أن لا إله إلا الله، ويصرف حق الله لغير الله -عزّ وجلّ-، بل لابد من أن يحفظ حق الله خالصاً له فيعبده، ولا يعبد غيره، ولا يصرف حقه إلى أحد سواه، ولا يعتقد أي شيء مما هو الله وحده عند غيره، لا يعتقد أن أحداً يعلم الغيب غير الله: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ}، فلا يأتي للمنجّمين والمرجمين وقراء الكفّ، ويعتقد أنهم يعلمون الغيب، وأنهم يعلمون ما يحدث ويقع، ما يصرف شيئاً، هذا كله لله، حق لله لا يُصرف بأي وجه كان، فحق الله -عزّ وجلّ- لله -عزّ وجلّ-، ولذلك قال -رحمه الله-: [أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ]، هذه حقيقة، وبيننا وجهها،

وأن من عبد الطاغوت لا يوصفُ بكونه عابداً لله، إذا ما يستطيعُ أحدٌ يعبد الطاغوت أياً كان من الأحياء والأموات يعطيه حقُّ الله -عَزَّ وَجَلَّ- ويعبده من دون الله، لا يوصفُ بكونه عابداً لله -عَزَّ وَجَلَّ-، فلا يتذرعُ بكونه يشهد أن لا إله إلا الله؛ لأنه صرف حقَّ الله إلى غير الله، والأصل: أنه لا يصرفُ حقَّ الله لغيره، ولذلك، {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ}، فأولاً: يثبتُ حقَّ الله وثانياً: يمتنعُ من صرفه لغير الله.

[الثامنة: أن الطَّاغُوتَ عامٌّ في كلِّ ما عُبدَ من دُونِ الله].

كما قدّمنا.

[التاسعة: عِظَمُ شَأْنِ ثَلَاثِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ السَّلَفِ، وَفِيهَا عَشْرُ مَسَائِلٍ]

[عِظَمُ شَأْنِ ثَلَاثِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ السَّلَفِ]: ومن سلف: هم من مضى، ويذكرُ السلفُ، ويعظّمُ أمرُ السلفِ، ويقصدُ بهم الصحابةُ -رضوانُ الله عليهم-، ومن تبعهم بإحسانٍ؛ لأنَّ الله قال في كتابه: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}، اللهم اجعلنا منهم اللهم اجعلنا منهم، اللهم اجعلنا منهم، واحشُرنا في زمرة من هؤلاء الذين كانوا مع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ومضوا إلى ربهم، أسلفوا على خيرٍ، ومضوا على خيرٍ، ولذلك زكاهم الله من فوق سبع سماواتٍ، وزكاهم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال فيما صحَّ عنه: ((خيرُ القرونِ قري))، فهؤلاء هم قدوةُ الأمة، والسلفُ الأولُ الصالحُ لهذه الأمة الصحابةُ -رضوانُ الله عليهم-، ثم التابعون لهم بإحسانٍ، يُقَيَّدُ (بإحسانٍ)، يتبعونهم فلم يغيروا ولم يبدلوا، وساروا على نهجهم.

السلفُ الصالحُ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ-، ذكر منهم عبد الله بن مسعودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-، ولذلك قال: [عِظَمُ شَأْنِ ثَلَاثِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ السَّلَفِ]، وذكر عبد الله بن مسعود؛ لأنه إمامٌ من أئمة السلف من كبار أئمة الفتوى عند الصحابة، كان عمرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقولُ لأهل

العراق: ((أتسألوني، وفيكم صاحب السوادين والنعلين؟)) عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه وأرضاه -.

هذا الإمام العظيم عظم هذه الآية، وهذه الآية اشتملت على أن أعظم ما نُهي عنه هو الشرك بالله، فمعناه: أن السلف يُعظمون أمر الشرك، وهذا مثل الشمس في رابعة النهار، لكن أن يصوغ هذا الأمر بقوله: ((من أراد أن ينظر إلى وصية محمد - صلى الله عليه وسلم - التي عليها خاتمه فليقرأ: {قُلْ تَعَالَوْا})), لم يكتب النبي - صلى الله عليه وسلم -: (هذا وصية)، لكنه يعلم ويفقه، إمام من أئمة العلم من الصحابة يعلم شأن هذه الآيات عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فبين أنها وصيته، وأنه يعلم أن الله وصى بها قبل نبيه - عليه الصلاة والسلام -.

طيب لماذا ذكر أنها وصية النبي - صلى الله عليه وسلم -، ولم يذكر أنها وصية الله؟ لأن القرآن يقول: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمُ}، {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمُ}، {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمُ}، {وَصَّاكُمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، {وَصَّاكُمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، {وَصَّاكُمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، فكونها وصية لله واضحة جلية، لكن أن يقول: ((إنها وصية محمد التي عليها خاتمه))، فهذا أمر عظيم، لكن عند أهل التوحيد الذين يفقهون ويعلمون. فانظر إلى الإمام المجدد - رحمه الله - يقول: [عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات]، هو ساقها من أجل الاستدلال على أمر التوحيد والاهتمام بالتنبية على أن الشرك من أعظم المحرمات، ساقها من أجل هذا، لكن مضمون الأثر الذي ساقه يدل على معنى آخر، وهو أن السلف الصالح - رحمهم الله - عظموا شأن هذه الآية، إذا عظم ابن مسعود - رضي الله عنه - وهو من أئمة الصحابة، فالصحابة كذلك معه معظمون.

[المحكمات]: "أحكم الشيء": إذا أتقن، والشيء المحكم: هو المتقن، وكتاب الله الذي هو كلام الله، صفته، وليس بمخلوق، منه ابتداء، وإليه يعود - سبحانه وتعالى -، كلام الله ليس بمخلوق، فالله وصف نفسه بأنه يتكلم، والكلام صفة لله - عز وجل - ثابتة، لا تؤوّل بالكلام النفسي، ولا تُعطّل، ولا يُشبّه بكلام المخلوق تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي}، {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}، كلها تثبت هذه الصفة، {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}، كلام الله ليس له منتهى، وهي صفة عظيمة لله - جلّ جلاله -، يتكلم متى شاء، وبما شاء بكلام، يسمعه من بعد كمن قرب، كما جاء في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، لا يؤوّل، ولا يُشبّه الله بخلقه.

وإذا أثبتنا له هذه الصفة، فليس معنا ذلك أننا نشبهه بغيره.
فكلامُ الله -عزَّ وجلَّ- محكمٌ، ولذلك قال تعالى: {الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}، (فَعِيلٌ) بمعنى (مفعِلٌ)، فالله أحكم آية القرآن، فهو محكمٌ متقنٌ.
وكذلك قال تعالى: {الرَّكِتَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}، فلا أتمَّ من كلام الله، إذا تكلم فكلامه الكلام، وكلامه أتمَّ الكلام، ما يستطيع أحدٌ يستدرِك على الله، لا في كلامه، ولا في حكمه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: {وَمَتَّ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}، كلماتُ الله تامةٌ غيرُ ناقصةٍ، أعجز الفصحاء والبلغاء والعلماء، وحارت عقولهم في جمال وجلال كلام الله، فلم يدر الإنسانُ مما يتعجبُ، أمن عظمة كلام الله -جلَّ جلالُهُ- فيما احتوى من الدلائل والمعاني، وفيما فيه من الترتيب البديع الجميل الجليل الذي تحدَّى الله به قريشًا، وتحدى بها العرب، وهي في فصاحتها، وفي أوج فصاحتها، ما استطاعت أن تأتي بسورةٍ من مثله، وتحداهم هم والجنُّ والإنس: {عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}.
كلامُ الله -جلَّ جلالُهُ- محكمٌ متقنٌ، ولذلك قال: [الآياتِ الْمُحْكَمَاتِ]، وقلنا: إنَّ المحكم يُطلقُ بالمعنى الذي هو ضدُّ المنسوخ، أي أنه باقٍ إلى قيام الساعة، ولذلك يُقال: (هذه آيةٌ محكمةٌ، وهذه آيةٌ منسوخةٌ)، فهذه الآياتُ محكمةٌ باقيةٌ إلى يوم القيامة ويقول: [الآياتِ الْمُحْكَمَاتِ].

[فِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ، أَوَّلُهَا: النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ].

كلُّها هذه العشر التي نهى الله فيها وأمر، إذا عددتها في آخر سورة الأنعام وجدتها عشرًا، وهي تشتملُ على مصالح الناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم، تندريُّ باندرائها مفسدُ الدِّين والدُّنيا، ولذلك المصالحُ تتحقَّقُ بالأوامر، والمفسدُ تندريُّ بالنواهي، فدرأ اللهُ الشُّرُورَ عن العباد حينما نهاهم عن هذه العشر التي أوَّلها وأساسُ البلاء فيها والشرُّ: الشِّرْكَ بالله -عزَّ وجلَّ-، أعظمُ مفسدةٍ، وأعظمُ شيءٍ يُنهى عنه هو الشِّرْكَ بالله -عزَّ وجلَّ-، لا تعجبُ إذا سمعتَ عالمًا أو شيعيًا فرَّغَ نفسه ليلاً ونهارًا سرًّا وجهارًا، ليس عنده إلا تحذيرُ الناس من الشرك، لا تعجبُ؛ لأنَّ الله بعث الرسلَ ورسالات الرسل كلُّها مجتمعةً من أجل أن تحفظَ على الناس دينهم وعقولهم وأعراضهم وأموالهم، فالدينُ أساسُ التوحيد، وبلاؤه الشِّرْكَ،

أعظم ما فيه من المفسدة في الأديان هو الشرك، ومن هنا، هذه الآيات تدل على عظم أمر الشرك، فقد بين -رحمه الله- أن الله نهي عنه.

[أَوَّلَهَا: النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ]، [أَوَّلَهَا]: فبين أنه منهي عنه وهو الشرك، وأن الله جعله في أول المنهيات، وهذا يدل على عظم شأنه.

[الْعَاشِرَةُ: الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ؛ وَفِيهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ مَسْأَلَةً، بَدَأَهَا اللَّهُ بِقَوْلِهِ: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}، وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}].

[{وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}، وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}]: الأول والثاني، ابتداء النهي وخاتمة النهي، كلها في النهي عن الشرك، استفتحها الله بقوله: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}، جمع الله لأهل الشرك بين صفتين، كل من أشرك بالله تجد فيه صفتين، وإذا أخبر الله أنه موصوف بهاتين الصفتين، فوالله لا نشك ولا نمتري أنه من أهل الصفتين، أولاً: أنه مذموم، والثاني: أنه مخذول، وكفى بهما شقاءً وعناءً في الدنيا والآخرة، المذموم من الذم، والذم: ضد المدح، فإذا عاش العبد، الحياة يعيشها الناس كلهم، فإمّا محمودون، وإمّا مذمومون.

أهل الفضل والنبيل والخير والسعداء يبحثون عن المدح من الله -جلّ جلاله-، ثم من خلقه فيما شرع الله.

وأهل الشقاء والعناء مذمومون من الله ومن خلقه.

والذم: ضد المدح، والذم يكون فيه ألم شديد على صاحبه، وعذاب أكيد، من كان مذمومًا بين الخلق، مذمومًا بين العباد، لن يعرف للسعادة طريقًا إذا أوقعه الله في ذلك، ونقص الذم الشرعي الذي يستحق، ليس هناك ذم أعظم من ذم الشرك، ولك أن تتخيل أن أعظم الذم بين الله في كتابه لأهل الشرك، أعظم ذم للإنسان في شركه بالله -عزّ وجلّ- بينته نصوص الكتاب والسنة، وتأمل أن الإنسان يعيش بين الناس، ويوصف بالصفات الحميدة والمذمومة، وقد يكون ما وُصف به حقًا، وقد يكون باطلاً، يقال: (هذا لا عقل له)، أسوأ ما يقال في الإنسان: أن يُنفى عنه العقل، يقال: (فلان ليس بعقل)، أو فلان

مجنون)، هذا اتفق العلماء على أنه أعظم الذم، أن يقال للإنسان: (أنه ما عنده عقل)، ولذلك لم يُذم المشركون بنفي العقل من الخلق، بل من الخالق: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}، لما ذكر أن لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم أذان لا يسمعون بها، وأنهم قد ذرئوا لجهنم، ثم وُصفوا من ربهم، ولا يُنبئوك مثل خير، {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ}، ما قال: (إنهم كالمجانين)، المجنون قد يُعذر في جنونه، شيء غلب عليه، لكن هؤلاء هم الذين عطّلوا العقل، عطّلوا النور الذي جعله فيهم، ترى الإنسان يصيب الحق بنورين بتوفيق الله: نور داخل، وهو العقل: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}، ما أشركنا بالله، كان الواحد منهم، أعز ما تملكه العرب في الجاهلية من الطعام، التمر، فلاجل تعظيمه لإلهه يصنعه من تمر، يصنع إلهه من تمر، ويجيد صنعه، بل من أجود أنواع التمر، فإذا أمسى وجاع أكل الإله الذي صنعه، أي عقل هذا؟! شيء لا يفعله حتى المجنون، {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ}، الله يقول: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} يعني حتى مسلماً كان أو كافراً، فالله كرمه من أصل الخلقة، هذا التكريم العام للجميع، لكن هذا التكريم في الخلقة تكريم منة وامتنان: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}، لكن بالشرك: {إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}، أردأ وأسوأ، فأسوأ ما أنت راء من أشرك بالله، وأسوأ ما تسمعه الشريك بالله، وأسوأ ما تجده في الناس وفي الخلق الشريك بالله -عز وجل-، فهو الذي يُذم بغاية الذم.

قال الله -عز وجل-: {لَا تَجْعَلْ}، لم يقل للأمة: (لا تجعلوا)، خاطب نبيه -عليه الصلاة والسلام-، انظر الخطاب لنبيه، والخطاب لأُمَّته من بعده، ما قال: (لا تجعلوا)، قال: {لَا تَجْعَلْ}، فالله لا يحابي في الدين والتوحيد أحداً، ولذلك قال: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، فحق الله ما فيه مجاملة، {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ}، فهذا أمر عظيم، ولذلك أعظم الذم ذم المشرك بالله.

لما قال الله: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}، ما قال: (فتصير، فتصبح)، لا، {فَتَقْعُدَ}، الذي يسمو للمعالي لا يوصف بأنه قاعد، لكن الخامل الذليل الذي هو ضعيف الهمة في السمو لمعالي الأمور يوصف بالقعود، ولذلك لما قال الخطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فأنت الطاعم الكاسي

تأكيد الدّم بما يشبه المدح، يقال له: (واقعد فأنت الطاعم الكاسي)، وجاء واشتكاه إلى عمر -رضي الله عنه-، قال عمر: (ما أرى في هذا بأساً)؛ لأنه شاعرٌ ذكيٌّ، فلما سأل حسناً قال: هل هجاء؟ قال، سلح عليه) يعني أعظم من الهجاء، فقال: (واقعد فأنت الطاعم الكاسي). فقال الله تعالى: {فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}، ولذلك لا تجد المشرك يُوقَفُ لخيرٍ، ولا يُوقَفُ لسعادةٍ في دينه ودنياه وآخرته، إن رأيت في الدنيا عنده مصبوبةٌ عليه، فاستدرج، وهذا من مكر الله لمن ضيّع حقه، مستدرجٌ إذا رأيت نعم الله عند من كفر وطغى وبغى وأشرك بالله -عزَّ وجلَّ- فهي استدرجٌ، ما هي نعمةٌ، وتجده منعماً في الظاهر، معدّياً في الباطن: {وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ}، {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ} يعذبهم الله بها.

فالشاهد: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ} ليس النّهي عن الشرك، أولاً: في توجيه الخطاب لنبيّه، فلم يجامل الله في حقه أحداً، وقال: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}، وأمّا ذم الآخرة، فيذمون في الدنيا، وتجد كلّ إنسانٍ إذا عُرِضَتِ الحقائق، وأراد أن يتكلّم خرسَ لسائه، وإذا أراد أن يصول ويجول بالشرك وبصرف حقّ الله لغير الله خارت قواه، وذهبت أركانه، الباطل باطلٌ، ولذلك قال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ}.

فالشاهد من هذا: أنّ الله وصف أهل الشرك بهاتين الصّفتين: {فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا}، الخذلان، أولاً: توحيد المسألة، لما يذهب ويشرك مع الله غيره هو يذهب إلى من جعله نداً لله تعالى.



أثابكم الله فضيلة الشيخ، وجزاك الله خير الجزاء، وأسعدك ووالديك سعادة الأبرار، وحفظك الله بحفظه، وجعلك الله مباركاً أينما كنت، وأطال الله في عمرك على عملٍ صالحٍ يرضيه.

السؤال الأول:

فضيلة الشيخ، هذا سائلٌ يقول: ما هي عقيدة أهل السنة في عذاب القبر؟ وما هو الدليل عليه؟

الجواب:

باسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد: فقد دلت النصوص في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- على إثبات عذاب القبر، ولذلك أجمع العلماء والأئمة على إثباته.

ففي قوله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}، هذا دليل على أنهم يُعَذَّبون قبل أن يُبعثوا.

وكذلك جاءت السنة الصحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أنه مرَّ على قبرين، فقال: ((إنهما ليُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبير، ثم قال: أمّا هذا فكان يمشي بالنميمة، وأمّا هذا فكان لا يستتر من بوله)).

وثبت في الحديث الصحيح عنه -عليه الصلاة والسلام-: ((أنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- دخلت عليها يهودية، فاستطعمتها فاطعمتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فدعرت أم المؤمنين، فلما دخل عليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أخبرته، فأوحى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم قال: ((هل شعرت أنه أوحى إلي أنكم تُعَذَّبون أو تُفْتَنون في قبوركم كفتنة الدجال أو أشد، قالت -رضي الله عنها وأرضاها-: فما رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى صلاة إلا واستعاذ بالله فيها من عذاب القبر)).

وكذلك أمر بالاستعاذة من عذاب القبر في حديث الأربع.

وثبت عنه -عليه الصلاة والسلام- في مسند أحمد من حديث البراء بن عازب -رضي الله عنهما وأرضاها-: ((أنه جلس في جنازة أنصاريّ تحلقوا حوله، ويديه عُودٌ ينكت به الأرض، فقال: تعوذوا بالله من عذاب القبر، تعوذوا بالله من عذاب القبر، تعوذوا بالله من عذاب القبر))، اللهم إنّا نعوذ بك من عذاب القبر.

عذاب القبر عقيدة أهل السنة والجماعة إثباته؛ لأن النصوص أثبتته، وجرى على ذلك الصحابة -رضوان الله عليهم- ومن تبعهم بإحسان على أن عذاب القبر ثابت، والمؤمن ينعم، ويُعذب في قبره؛ وهذا كله إعمالاً لما دلت عليه النصوص في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، والله تعالى أعلم.

السؤال الثاني:

ثم يقول -حفظك الله-: وهل يُعذب به المؤمنون العصاة، أم يختص بغير المسلمين؟

الجواب:

يُعذب به العصاة من المسلمين، ولا يختص بالكافرين؛ لأنه مرّ على قبرين، وقال: ((إنهما ليُعذبان، ثم قال: أما هذا فكان يمشي بالنميمة))؛ فدل أنه من عصاة المؤمنين، ولو كان كافراً لذكر الأعظم، ولم يذكر الأدنى، فلما ذكر عذاب القبر إنما هو دليل على أنه من عصاة المؤمنين، ولذلك قال: ((تعوذوا بالله من عذاب القبر))، فبين -عليه الصلاة والسلام- أن كبائر الذنوب، كالنميمة وعدم الاستنزاه من البول أنها توجب عذاب القبر.

نعم يُعذب العصاة من المؤمنين بعذاب القبر، لكن هذا بمشيئة الله -عز وجل-؛ لأن عصاة المؤمنين ومن يرتكب الكبيرة في مذهب أهل السنة: أنه تحت مشيئة الله في الدنيا والآخرة، إذا خرج من الدنيا في البرزخ والآخرة، فالبرزخ إذا خرج وهو على الكبيرة، فالله -عز وجل- إن عذبه فبعده، وإن عفا عنه فبفضله، لا يُسأل عما يفعل، وهم يسألون، والله تعالى أعلم.

السؤال الثالث:

أثابكم الله، ثم يقول -حفظك الله-: وإذا كان يُعذب به العصاة، فهل عذابهم دائم مستمر أم منقطع، جزاكم الله خيراً؟

الجواب:

العذاب يُخفف، كما دعا -عليه الصلاة والسلام- بجريدة رطبة، فشققها نصفين، وقال: ((لعله يُخفف عنهما ما لا ييبس))، اللهم إنا نعوذ بك من عذابك وسخطك.

نبي الأمة ما استطاع أن يكشف عذابهم، ولا أن يزيل العذاب عنهم، ثم قال تأدباً مع الله: ((لعله يخفف عنهما ما لا ييبس)).

يتقي المؤمن الكبائر، وينبغي للمؤمن أن يحذر من غضب الله -عز وجل-، ويتعد عن كبائر الذنوب، ويعلم أنها أساس البلاء في الدين والدنيا والآخرة، قال: ((لعله أن يخفف عنهم))، كل ما أمرك الله به تفعله، هذا لا يستنزّه من بوله، أمرنا الله أن نستنزّه من البول، وأن نتقي البول، وأن نتحفظ، وأن نصلي الصلاة التي ترضيه على الوجه الذي جاءت به النصوص، فكل هذا يأخذه المسلم الموفق بحذر شديد حتى يسلم من التبعة في دينه ودنياه وآخرته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.